Rimak International Journal of Humanities and Social Sciences
ISSN: 2717- 8293

Research Article March 2022 Volume: 4 Issue: 2

STRUCTURE AND FUNCTION
A STUDY IN THE BOOKS OF ARAB HERITAGE

Ali Abdulnabi Ebrahim Mohamed HASAN[1]

Istanbul / Türkiye
p. 519-538

Received: 30/01/2022
Accepted: 21/02/2022
Published: 01/03/2022

This article has been scanned by **iThenticat** No **plagiarism** detected

Abstract:

The discourse of introductions in the books of the Arab heritage is considered one of the introductory texts that has not received its share of critical studies in studying the text itself, as it represents a discourse that has a special structure that distinguishes it from other texts. He does not consider it an intermediary discourse between the originating book and its predecessors in the field of art itself, or between the author and a group of real and supposed recipients; Rather, it is a discourse that lies in its external structure and its internal components, technical, cognitive, and communicative functions. These introductions present the text to be conveyed to the recipient (the subject and material of the book); But it is not an excess of leftovers; It is above its structure linked to its cultural and historical pattern, and with the norms of the literary genre, it is an important mediation for the recipient that contributes to the way the text is received. The discourse of introductions in the literary heritage books has special verbal norms with argumentative and persuasive dimensions that are subject to discursive strategies that are directly and closely related to the traditions of the literary institution that are formed within cultural norms that soon turn into a system that forms a structural framework in general, in Arabic heritage is almost one preface. Literary books in particular. This research aims to study the discourse of introductions to literary heritage books through a set of models to reveal the general (mother) structure of those introductions, and the special structures (which appear through the models under study). Our study will be based on a set of these introductions in the literary heritage books; They are: Kitab al-Amali by Abu Ali al-Qali, Evidence of Miracles by Abd al-Qaher al-Jurjani, Uyun al-Akhbar by Ibn Qutayba al-Dinuri, Kitab al-Faraj after hardship for al-Tanukhi, and al-Mustajad from the verbs of a virtuous one, al-Tanukhi, Book of Controversies on the Commentary of Abu al-Tayyib al-Mutanabbi's Diwan, Maqamat al-Hariri, Introduction by Ibn al-Muqaffa in Kalila wa Dimna, layers of theologian poets and among the advanced writers of Ibn Al-Moataz.
In this study, we attempt to answer the following question:
What are the structures that govern the discourse of introductions?
What are the functions of this introductory letter?

Key words: Speech, Heritage Books, Introductory Texts.

http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.16.35

[1] Dr. , Ahlia University, Bahrain, ahasan@ahlia.edu.bh, https://orcid.org/0000-0002-9974-4012

Copyright © Published by Rimak Journal, www.rimakjournal.com
Rimar Academy, Fatih, Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

Volume: 4 Issue: 2

خطاب المقدمات البنية والوظيفة

علي عبد النبي إبراهيم فرحان [2]

الملخص:

يعدّ خطاب المقدمات في كتب التراث العربي من النصوص التقديمية التي لم تنل حظها من الدراسات النقدية في دراسة النّصّ لذاته كونه يمثّل خطابًا له بنية خاصّة تميّزه عن غيره من النصوص، ليس في عدّه خطابًا وسيطًا بين الكتاب المنشأ وما سبقه من كتب في مجال الفن نفسه فحسب، أو بين المؤلف ومجموع المتلقين الواقعيين والمفترضين، بل بكونه خطابًا تكمن في بنيته الخارجية ومكنوناته الداخلية وظائف فنية وأخرى معرفية وثالثة تواصلية.

تلك المقدمات تتقدّم النّصّ المطلوب إيصاله للمتلقي (موضوع الكتاب ومادته)، لكنّها ليست فضلة زائدة، إنّها فوق بنيتها المرتبطة بنسقها الثقافي والتاريخي، وبأعراف النوع الأدبي تعدّ وساطة مهمة للمتلقي تسهم في طريقة تلقي النّصّ.

إنّ لخطاب المقدمات في الكتب التراثيّة الأدبيّة سننًا قوليّة خاصّة ذات أبعادٍ حجاجية وإقناعية تخضع لاستراتيجيات خطابية تتصل اتصالا مباشرًا ووثيقًا بتقاليد المؤسسة الأدبية التي تتشكّل ضمن أعراف ثقافية ما تلبث أنْ تتحوّل إلى نسقٍ يشكّل إطارًا بنائيًا يكاد يكون واحدًا في مقدمات الكتب في التراث العربي عمومًا، وفي الكتب الأدبية منها على وجه مخصوص.

يهدف هذا البحث إلى دراسة خطاب مقدمات الكتب التراثية الأدبية من خلال مجموعة من النماذج للكشف عن البنية العامة (الأمّ) لتلك المقدمات، والبنى الخاصة (التي تظهر من خلال النماذج موضع الدراسة).

وستقع دراستنا هذه على مجموعة من تلك المقدمات في كتب التراث الأدبية، هي: كتاب الأمالي لأبي علي القالي، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، كتاب الفرج بعد الشدّة للتنوخي، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد، للتنوخي، كتاب المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، مقامات الحريري، مقدمة ابن المقفع في كليلة ودمنة، طبقات الشعراء المتكلمين ومن الأدباء المتقدمين لابن المعتز.

نحاول في هذا المبحث أن نجيب عن التساؤل الآتي:

ما البنى التي تحكم خطاب المقدمات؟ وما الوظائف التي يحققها هذا الخطاب التقديمي؟.

الكلمات المفتاحية: خطاب، كتب التراث، النصوص التقديمية.

المقدمة:

إن انتقال النصّ العربي في رحلة التواصل من المشافهة إلى الكتابة أفضى بمؤلفي الكتب أنْ يقوموا بدور الوسيط بين النصّ والمتلقي، وعمليات التغيير التي تحتاجها عملية التواصل الإبداعي بين المبدع وجمهور متلقيه، سواء أكانوا مريدين أم مناوئين.

من هذا الوعي انطلق المبدع وهو يؤلف كتابه إلى العناية بخطاب المقدمة بوصفها خطابا تقديميا يفوق مقصد التقليد أو البرتوكول ويتخطى ذلك إلى كونه خطابًا ذا أبعاد تواصلية ومقاصد خطابية فيتحوّل – في أغلب الحالات – من كونه مقدمة تمهيدية إلى كونه خطبة أو رسالة.

[2] د. ، الجامعة الأهلية، البحرين، ahasan@ahlia.edu.bh

هذه المقدمة تكشف لنا عن صورة المبدع والمتلقي والنصّ، ما يكشف عن أنّ خطاب التقديم يخضع إلى سنن التأليف الأدبي ومواضعاته في الإبداع والاستقبال.

تلك الصورة هي التي تسبغ على هذا النص صفة الأدبية ووسم الخطاب بأن يكون خطابًا حيًّا ذا استراتيجيات وتقاليد خطابية يضطلع بها خطاب التقديم.

هذا الأمر كان العربي (بلاغيًا في رؤية البلاغة الجديدة) واعيًا به، ولا يخلو من مقصدية موجهة لتحقيق وظائفه المرجوة.

من هنا كان لزامًا علينا أن نبدأ بتفكيك بنية تلك النصوص التقديمية، والكشف عن سننها التي تختبئ فيها مكوناتها، ومن ثم الوصول إلى الوظيفة والمقصد لهذه المقدمات.

وإذ إنّ المدونة في ذلك غزيرة جدًا ارتأينا – ضبطًا لحدود البحث – أن ندرس مجموعة من تلك المقدمات التي تشترك في كونها مقدمات الكتب الأدبية وأنها تنتمي إلى حقبة زمنية متقاربة تمثّل مرحلة من مراحل التأليف في التراث العربي.

إشكالية البحث:

إنّ النظر إلى المقدمة في المصنفات العربية الأدبية في التراث العربي على أنّه كلام غفلٌ يمكن الاستغناء عن قراءته يفقد أهميته حين يتحوّل ذلك الخطاب – عبر وظائفه المختلفة – من كلام غفل إلى خطاب ذي وظيفة وغاية، بمعنى أنّه يكتسي وفق ذلك قيمًا إنجازية تحوّله إلى خطاب أدبي وحجاجي بامتياز.

والسؤال كيف يتحوّل هذا الخطاب من كونه كلامًا غفلًا إلى كونه نصا تداوليًا ينجز مقاصده في فعل الكلام؟

هل يكون خطاب التقديم قادرًا على أن يكون خطابًا منظمًا وقادرًا على الدخول في عمليات التواصل واقتصاد الكلام؟

ما صلة هذا الخطاب بالأنظمة الرمزيّة المتّخِذَة من المؤسّسة الأدبيّة والحقل الأدبيّ ونظام الخطاب؟ وما صلة ذلك برؤية الأديب للأدب والمبدع للإبداع؟ وما هو موقف المتلقي من الأديب؟ وما موقف الأديب من المتلقي؟

وما السّنن الّتي يتّبعها الأديب العربيّ في خطاب التقديم؟

وما الوظائف الّتي يرومها الأديب من نصّه؟ وما الوظائف التي يقوم بها الخطاب نفسه؟ أين تكمن بلاغة تلك المقدمات؟

من أين تكتسب المقدمة أدبيتها أ من داخل النص أم من خارجه؟ أ من ذاته ولذاته أم من المؤسسة الأدبية التي تقبع خارج النص؟

موضوع الدراسة:

في ضوء ذلك علينا النظر إلى المقدمات في كونها بنيت على نظام قارٍ يقوم على سنن معروفة في التأليف وعلى تقاليد كتابية معروفة، فكاتب المقدمة عليه أن يفتتح خطابه (بحمد الله والثناء عليه ثم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم) ثمّ يبين سبب الكتابة في الفن المقصود، والدوافع التي دفعته لذلك، ومبررات كتابته في هذا الفن، وربما أشار إلى من سبقه، وطريقته في تنظيم مادة كتابه، مع ذلك الغايات من الكتابة، وما يتصل بالكتابة من أغراض.

ومن جهة أخرى يتعلق علينا دراسة هذا الخطاب وما يتصل به من تواضعات سياقية وقوانين ثقافية في إطار تداولي بما يكشف عن تصور الأديب للأدب، والعلاقة التداولية بين الأديب والمتلقي.

عني المصنفون العرب القدماء بمقدمات كتبهم، " فقد كانوا يتحدثون فيها عن منهجيتهم في التأليف وعن محتوى الكتاب، وقد نرى بعضهم يدخل في حوار مع كتاب سابق للكشف عن الجديد الذي يطرحه في كتابه وعن أسبقيته إلى موضوع من

Volume: 4 Issue: 2

الموضوعات.إلخ. وهذا يدل على أن المصنفين العرب كانوا "واعين، أشد ما يكون الوعي، بأهمية المقدمة ووظائفها وأدوارها المتميزة وسلطتها الخطابية والإقناعية " (بلال 2000:39).(Walat، 2014)

حدود الدراسة:

وستقع دراستنا هذه على مجموعة من تلك المقدمات في كتب التراث الأدبية، هي: كتاب الأمالي لأبي علي القالي، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، عيون الأخبار لابن قتيبة الدينوري، كتاب الفرج بعد الشدّة للتنوخي، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد، للتنوخي، كتاب المآخذ على شراح ديوان أبي الطيب المتنبي، مقامات الحريري، مقدمة ابن المقفع في كليلة ودمنة، طبقات الشعراء المتكلمين ومن الأدباء المتقدمين لابن المعتز.

أهداف الدراسة:

يهدف هذا البحث إلى دراسة خطاب مقدمات الكتب التراثية الأدبية من خلال مجموعة من النماذج للكشف عن البنية العامة (الأمّ) لتلك المقدمات، والبنى الخاصة (التي تظهر من خلال النماذج موضع الدراسة).

سنعمل في هذا المبحث على أن نجيب عن التساؤل الآتي:

ما البنى التي تحكم خطاب المقدمات؟ وما الوظائف التي يحققها هذا الخطاب التقديمي؟

الدراسات السابقة:

الدراسات في هذا الموضوع شحيحة لحداثة هذا الباب، ومن أبرز تلك الدراسات:

1- مقدمات الكتب من خبيء فوائدها ومكنون نفائسها، للأستاذ بشار بكور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – المجلد (٨٧)الجزء(٣): هدف الدراسة إلى عرض بعض الفوائد المنثورة المستقاة من مقدمات الكتب، وذكر بعض الخصائص العامة للمقدمات. وقد عرض الباحث مجموعة من المقدمات وبين أهم غاياتها وفوائدها. (باكور، 2012).

2- أصول التفسير في الخطاب المقدماتي، دراسة أبستمولوجية في أشهر مقدمات كتب التفسير، للدكتور أحمد ذيب، صدرت عن مركز تفسير للدراسات القرآنية، هدف البحث إلى إظهار أهم الإشارات التأصيلية الثاوية في أشهر كتب التفسير وكشف حمولاتها المنهجية. ودرس فيها كيف يمكن أن تؤصّل مقدمات كتب التفسير أصول التفسير أو ما أسماها نظرية أصول التفسير. وقد لاحظ الباحث أنّه برغم قدم علم التفسير إلا أنّ أصول التفسير تأخرت قواعده وتأصيلاته إلى زمن الإمام الطبري، كما لاحظ أن اهتمام المفسرين بعروبة النص التفسيري ناشئ عن حاجة أبستمولوجية وهي ضبط تاممارسة التفسيرية وفق مساطر معيارية ناظمة. كما توصل الباحث إلى أنّ من مارصده الباحث اشتمال أصول التفسير على ثلاث صفات أبستمولجية، هي: الانفتاح المعرفي والصفة المعيارية، والصرامة المنهجية. (ذيب، 1441هـ)

3- مقدمات الكتب: خط الدفاع الأوّل، (باسم سليمان، 2020م): هدف البحث إلى دراسة الوسائل التي يستعملها مصنفو الكتب في مقدماتهم لدرء الشبهات ودفع ما يمكن أنْ يشنّه المجتمع ممثلا في رجال الدين والسلطة وما يمثلانه من رقابة ومنع، وقد اتكأ الباحث في دراسته على مقدمات بعض الكتب التراثية مثل طوق الحمامة لابن حزم، ومصارع العشاق للسراج، وعيون الأخبار لابن قتيبة، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن الجوزي، وتوصل الباحث إلى ما أسماه خير وسيلة للدفاع الهجوم. وأنّ هؤلاء الكتّاب استطاعوا أن يضمنوا لأفكارهم النجاة، عبر مقدّمات الكتب التي ضمّنوها أسباب إيرادهم تلك القضايا الشائكة والقرائن على صحّة ذكرها. (سليمان، 2020)

4- مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع، (د. عباس أرحيلة، منشورات المؤسسة العربية للفكر والإبداع 2003م)، هدف فيه الباحث إلى: تأكيد وجود تصوّر واضح للتأليف في مقدّمات الكتب في حضارة الإسلام، وأنّ ذلك التصوّر أصبح واضحا من القرن الثالث للهجرة، ومعالجة بعض مشكلات البحث العلمي في التراث الإسلامي، من خلال أشكال الخطاب في مقدمة التأليف، وذلك بالوقوف عند دعاوى المؤلفين في تراث الإسلام حين يقولون إنهم أتوا بما لم يُسبقوا إليه، وإنهم اجتهدوا وتجاوزوا السابقين، فتحقق في آثارهم الإبداع. وخلص الباحث إلى مجموعة من النتائج من أبرزها: أن دراسة مقدمة الكتاب تكشف عن حضور مسألة المنهج، منذ المراحل الأولى للتأليف في الثقافة الإسلامية. ونفى أنْ يكون ذلك قد تم بتأثير من الحضارة الغربية الحديثة. فالمصطلحات المستعملة في مقدمات الكتب تدل على رسوخ مناهج التأليف في تراث الإسلام. وأهم سمات المنهج العلمي الذي تُعرب عنه مقدمات الكتب في التراث العربي. (أرحيلة، 2003م)

5- عمل الوساطة في خطاب المقدّمات، كتب الاختيارات:النثريّة أنموذجا، لحمدي خليفة عبيد، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، المجلد 29 العدد 4، 22021م: هدف فيه الباحث إلى تبيّن دور المقدّمات والنصوص الموازية في الكشف عن مسار تحوّل النصّ من مجال اللانصّ إلى مجال النصّ والمأسسة. والكشف عن مقاصد التأليف الّتي تجعل من المؤلّف عونا وسائطيّا ينهض بوظيفة النقل والإبلاغ.

وقد خلص الباحث إلى: دراسة خطاب المقدمات تكشف عن التفاعلات الّتي تسمح بإنتاج النصّ الأدبيّ وانتقاله من مجال غير موسوم إلى مجال آخر موسوم. وقد انتهى الباحث إلى أنّ الأديب يؤلّف كتابه محتذيّا سننا مخصوصة في التأليف الأدبيّ، منها ما يفصح عن متصوّر الأدب لدى العرب ومنها ما يكشف عن وظيفة الأديب، هذا إضافة إلى مقاصد التأليف الّتي تجعل من المؤلّف عونا وسائطيّا مضطلعا بوظيفة النقل والإبلاغ. كما كشفت الدراسة أنّ فضل النصّ الأدبي وقيمته النوعيّة لا يقتصران على خصائصه الشكليّة النصيّة وسماته الداخليّة الموضوعيّة، وإنما يطالان الخارج الّذي يتّخذ عدّة مصطلحات منها المؤسّسة الأدبيّة ونظام الخطاب وسنن التأليف والحقل الأدبيّ. فكلّ نصّ أدبيّ محكوم بنظام خطاب يتعالى عليه ويتقدّمه زمنا وفضاء ومنزلته منه تعادل الاشتراط الطبيعيّ في عالم الطبيعيّات. (عبيد، 2021)

6- مقدمة ابن المقفع ل (كليلة و دمنة): مستويات القارئ، تناولت هذه الدراسة مستويات المتلقي كما جاءت في مقدمة ابن المقفع لكتاب (كليلة ودمنة)، وركزت على القارئ وليس على مضمون الكتاب أو مؤلفه. وتقدم الدراسة تحليلها لأسباب امتناع ابن المقفع عن تفسير تلك الرموز والإشارات، وترك أأمرها للقارئ رغم حرصه الشديد على أن يفهم القارئ المقاصد العميقة لتلك القصص. وتربط الدراسة كل ذلك بآراء الباحثين العرب الذين يرجحون (أو يؤكدون) أن ابن المقفع هو من كتب قصص كليلة ودمنة أو كتب بعضها على أقل تقدير.

وقد توصّل الباحث إلى أن ابن المقفع أظهر من خلال هذه المقدمة وعيًا عميقًا بمسألة التلقي في زمن كان التركيز في مقدمات الكتب ينصب على الكتاب أو على المؤلف أو عليهما معًا، ولم يكن التوقف عند القارئ يتم إلا بإشارات عابرة. وقد رأى الباحث أن مقدمة ابن المقفع امتازت بالمنهجية الواضحة والمتماسكة حيث انطلق فيها من العام إلى الخاص مركزًا فيها على القارئ بالتحديد (وأحيانًا المؤلف). (Walat، 2014)

ضروب المقدمات:

يمكن أن نختزلها في ضربين، منها ما يجيء بخطّ المؤلّف نفسه، ومنها ما يجيء بخطّ غيره. أمّا الضرب الأول فيعرف بالمقدمة الذاتيّة. وأمّا الضرب الثاني فيعرف بالمقدمة الغيريّة. وهذه قد يكتبها المحققون أو الناشرون أو المقرظون أو النقاد.

Volume: 4 Issue: 2

"خلاصة القول إنّ خطاب المقدّمات الأدبيّة ضرب من الخطابات يعرض سننا خاصّة به وأساليب بلاغيّة وإقناعيّة واستراتيجيات تلفظيّة وثيقة الصلة بمسارات القراءة والإيديولوجيا والمؤسّسة الأدبيّة. وبتضامنها يتحوّل الكلام من وضع الكلام الغفل إلى طور الكلام الموسوم حيث تضاف إليه قيم تبادليّة تسمح له بالالتحاق بدورة اقتصاد القول." (عبيد، 2021)

وإلى زمن ليس بالبعيد ظلّ خطاب التقديم مهملا في الدراسات النقدية التي تناولت دراسة المتون، إلا أنّ الدراسات النقدية الحديثة عنيت بدراسة المقدمات التي تسبق متون الكتب، لأنّها بنية نصية لها دلالاتها المستقلة من جهة كونها نصًّا قائمًا بذاته (وقد يكون لذاته)، وذات صلة بالمتن من جهة أخرى.

1– أنواع المقدمات من حيث المسائل التي تثيرها:

– المقدمة السلبية التي لا تثير مسألة.

– المقدمة الإيجابية التي تثير مسألة تاريخية كمقدمة الحريري التي تثبت أسبقية البديع في إنشاء المقامات.

– مقدمة تحدد نمط المتلقين وتحدد الموقف منهم، كمقدمة ابن المقفع في كليلة ودمنة، ومقدمة الشاطبي في كتابه "المقاصد الشافية".

– المقدمة النقدية التي تنقد من ألّف قبله في بابه، مثل مقدمة التنوخي في الفرج بعد الشدة، ومقدمة أبي العباس أحمد بن علي بن معقل الأزدي المهلبي الموسوم ب"كتاب المآخذ على شرّاح ديوان أبي الطيب المتنبي."

– مقدمة تبريرية (استباقية) كمقدمة ابن حزم في طوق الحمامة، ومقدمة عيون الأخبار لابن قتيبة.

– مقدمة تقرر مسالة كالمسألة الفقهية كمقدمة ابن خلف الستري في كتاب رسالة الشك في الصلاة. (مخطوط).

2– بنية خطاب المقدمات:

كي نعرف الفرق بين المقدمة والتي تتسم بصفة التقديم والمقدمة التي تتحوّل إلى خطبة نقف عند مقدمة دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ثم نقارن ذلك بمقدمتي كتاب الأمالي لأبي علي القالي وكتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.(إنّ مقدمة كتاب دلائل الإعجاز) رغم أنّها تتسم بالإيجاز إلا أنّها تحتوي على البنية الأم لمقدمات الكتب في التراث العربي. يقول الجرجاني رحمه الله:

"الحمدُ لله رب العالمينَ حمْدَ الشاكرينَ وصلواتُه على محمدٍ سيّدِ المرسلينَ وعلى آلهِ أجمعين. هذا كلامٌ وجيزٌ يطّلع به النّاظرُ على أصولِ النّحوِ جُملةً، وكلَّ ما به يكونُ النظمُ دَفعةً، وينظُرُ منه في مرآةٍ تُريهِ الأشياءَ المتباعدَةَ الأمكنةِ قدِ التقَتْ لهُ حتَّى رآها في مكانٍ واحد، ويَرى بها مُشْتَمًا قد ضَمَّ إلى مُعْرِقٍ، ومُغرّبًا قد أخذَ بيدِ مُشَرَّقٍ، وقد دخلتُ بأخَرَةٍ في كلامٍ مَن أَصغى إليه وتدبَّره تدبُّرَ ذي دِينٍ وفُتوَّةٍ دَعاهُ إلى النَّظرِ في الكتابِ الذي وَضعناهُ، وبعَثهُ على طلبِ ما دَوَّنَّاهُ. والله تعالى الموفِّقُ للصَّوابِ والملهِمُ لِما يُؤدي إلى الرَّشاد بمَنِّه وفَضلِه." (الجرجاني، 1987م/1407هـ)

3– بنية الخطاب التقديمي:

يتألّف الخطاب التقديميّ من ثلاثة مقاطع كبرى، المقدّمة، ثم العرض ثم الخاتمة. وتجعل هذه المقاطع الثلاثة من المقدّمة خطبة أو بالأحرى رسالة لها أوّل ووسط وآخر. فأوّلها حمدلة وتصليّة وتمجيد ووسطها بعديّة وخاتمتها تسليم ودعاء.

وترابط هذه الأجزاء يكوّن البنية الأمّ لهذا الخطاب. لكن في ثنايا هذه المقاطع تتشكّل بنى تكوّن النسيج الداخلي لكلّ جزء من أجزاء هذه المقدمة.

يتكوّن الجزء الأوّل من الحمدلة ثم الصلاة على النبي وآله وصحبه.

ويتكون الجزء الثاني من البعدية. (أمّا بعد) ثم الحديث عن موضوع المتن وأهمية ومبررات اختياره، وغاياته وقيمته ومنزلته من العلم أو الفن وغالبًا ما تكون في هذا الجزء إشارة إلى تفوق هذا المتن أو بالأحرى مؤلف هذا المتن على سابقيه في المجال، وما يميّز

هذا المتن الذي يدار الحديث عنه عن المتون الأخرى. وفي هذا الجزء تبرز أهمية الإشهار وقد نجد في هذا الجزء الأديب يستند إلى سلطة علمية أو سياسية في نسبة أنّ هذا الكتاب جاء تلبية لطلب استجابةً لطلبٍ مِنْ " مَنْ إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ " ليبدُو المدوّن المقدّم له – للوهلةِ الأُولَى – عقدًا تتمخضُ مقتضياتُه عنْ خطاب مطابق للطلب.

وعادة ما يشير المؤلف إلى تفوق كتابه هذا على من سبقه، وربما يتواضع في ظاهر لفظه لأهل الاختصاص في المجال أو من سبقه إليه لكنه في فحوى المضمون يبرز علو كعبه عليهم وبروزه فوقهم وبزهم منزلتهم.

ففي مقامات الحريري:" وبعْدُ فإنّهُ قدْ جرَى ببَعْضِ أنْديَةِ الأدَبِ الذي ركدَتْ في هذا العصْرِ ريحُهُ. وخبَتْ مصابيحُهُ. ذِكْرُ المقاماتِ التي ابْتَدعَها بَديعُ الزّمانِ. وعلاّمَةُ همَذانَ. رحِمَهُ اللهُ تعالى. وعَزا إلى أبي الفتْحِ الإسكنْدَريّ نشْأتَها. والى عيسى بنِ هِشامٍ روايتَها. وكِلاهُما مجْهولٌ لا يُعرَفُ. ونَكِرةٌ لا تتَعرّفُ! فأشارَ مَنْ إشارتُه حُكْمٌ. وطاعَتُه غُنْمٌ. إلى أنْ أُنْشئَ مَقاماتٍ أتْلو فيها تِلْوَ البَديعِ. وإنْ لمْ يُدْرِكِ الظّالِعُ شأوَ الضّليعِ. فذاكَرْتُهُ بما قيلَ فيمَنْ ألّفَ بينَ كَلِمتَينِ. ونظَم بيْتًا أو بيتَينِ. واسْتقَلْتُ منْ هذا المقامِ الذي فيهِ يَحارُ الفَهْمُ. ويفرُطُ الوهْمُ. ويُسْبَرُ غوْرُ العقْلِ. وتتَبَيّنُ فيمَةُ المرْءِ في الفضْلِ. ويُضْطَرّ صاحِبُه إلى أن يكونَ كحَاطِبِ لَيْلٍ. أو جالِبِ رَجْلٍ وخَيْلٍ. وقلّما سلِمَ مِكْثارٌ. أو أُقيلَ لهُ عِثارٌ. فلمّا لمْ يُسْعِفْ بالإقالَةِ. ولا أعْفَى منَ المقالَةِ. لبّيْتُ دعْوَتَهُ تلبِيَةَ المطيعِ. وبذَلْتُ في مُطاوَعَتِه جُهْدَ المستَطيعِ. وأنْشأتُ على ما أُعانيه منْ قَريحةٍ جامِدةٍ. وفِطْنَةٍ خامِدةٍ. ورَويّةٍ ناضِبَةٍ. وهُمومٍ ناصِبَةٍ. خمْسينَ مَقامةً تحْتَوي على جِدّ القَوْلِ وهزْلِه. ورَقيقِ اللّفْظِ وجزْلِه. وغُرَرِ البَينِ ودُرَرِه. ومُلَحِ الأدَبِ ونوادِرِه. إلى ما وشّحْتُها بهِ من الآياتِ. ومَحاسِنِ الكِناياتِ. ورصّعْتُهُ فيها من الأمْثالِ العربيّةِ. واللّطائِفِ الأدبيّةِ. والأحاجيّ النّحْويّةِ. والفَتاوَى اللّغويّةِ. والرّسائِلِ المبتَكَرةِ. والخُطَبِ المحبّرةِ. والمواعِظِ المبْكِيةِ. والأضاحيكِ المُلْهِيَةِ. ممّا أمْلَيْتُ جميعَهُ على لِسانِ أبي زيْدٍ السّرُوجيّ. وأسْنَدْتُ روايتَهُ إلى الحارِثِ بنِ هَمّامٍ البِصْريّ. وما قصَدْتُ بالإحْماضِ فيهِ. إلا تنْشيطَ قارِئِيهِ. وتكْثيرَ سَوادِ طالِبيهِ. ولمْ أُودِعْهُ منَ الأشْعارِ الأجْنبيّةِ إلا بيْتَينِ فذّينِ أسّسْتُ علَيْهِما بُنْيَةَ المقامَةِ الحُلْوانيّةِ. وآخَرَينِ توأمَينِ ضمّنْتُهُما خَواتِمَ المقامَةِ الكرَجيّةِ. وما عدا ذلِك فخاطِري أبو عُذْرِه. ومُقْتَضِبُ حُلْوِهِ ومُرِّهِ. هذا معَ اعْترافِيْ بأنّ البَديعَ رحِمَهُ اللهُ سَبّاقُ غاياتٍ. وصاحِبُ آياتٍ. وأنّ المتصَدّيَ بعدَهُ لإنْشاء مَقامةٍ. ولوْ أُوتِيَ بَلاغَةَ قُدامَةَ. لا يعْترِفُ إلا من فُضالَتِه. ولا يسْري ذلِك المسْرى إلا بدَلالَتِهِ." (الشريشي، 2004)

وفي الفرج بعد الشدة: "فرأيت أن أنوع الأخبار وأجعلها أبوابا، ليزداد من يقف على الكتب الأربعة بكتابي من بينها إعجابا". (التنوخي، 1978م)

وفي دلائل الإعجاز قوله:" وينظُرُ منه في مرآةٍ تُريهِ الأشياءَ المتباعدَةَ الأمكنةِ قدِ التقَتْ لهُ حتّى رآها في مكانٍ واحد، ويَرى بها مُشْئمًا قد ضَمَّ إلى مُعْرِقٍ، ومُغرّبًا قد أخذَ بيدِ مُشَرِّقٍ". (الجرجاني، 1987م/1407هـ) وقال القالي:" مؤملا أن أوصل العلق النفيس إلى من يعرفه، وأنشر المتاع الخطير ببلد من يعظمه، وأشرف الشريف باسم من يشرفه، وأعرض الرفيع على من يشتريه، وأبذل الجليل لمن يجمعه ويغتنيه. وأودعته فنونا من الأخبار، وضروبا من الأشعار وأنواع من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أنى لم أذكر فيه بابًا من اللغة إلا أشبعته، ولا ضربًا من الشعر إلا اخترته، ولا فنًا من الخبر إلا انتخلته ولا نوعًا من المعاني والمثل إلا استجدته، ثم لم أخله من غريب القرآن، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم، على أنى أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد، وفسرت فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر، ليكون الكتاب الذى استنبطه إحسانُ الخليفة جامعا، والديوان الذى ذكر فيه اسم الإمام كاملا." (القالي، 2008م/ 1429هـ)

وفي خاتمة خطبة التقديم الدعاء بالتوفيق والسداد والرضا. وقد يسبق بالإقالة من متلقي النص وقارئه، وأخال ذلك من استراتيجيات المصنّف في توجيه القارئ. نقرأ ف ذلك، قول الحريري:" وأرْجو أنْ لا أكونَ في هذا الهذَرِ الذي أوْرَدْتُهُ. والمورِدِ الّذي تورّدْتُهُ. كالباحِثِ عنْ حتْفِهِ بظِلْفِه. والجادِعِ مارِنَ أنْفِهِ بكفّهِ. فألحَقَ بالأخْسَرِينَ أعْمالًا الذينَ ضلّ سعْيُهُمْ في الحياةِ الدُّنْيا. وهُمْ يحْسِبونَ أنّهُمْ يُحسِنونَ صُنْعًا. على أني وإنْ أغْمَضَ لي الفَطِنُ المتغابي ونضَحَ عنّي المحبُّ المحابي. لا أكادُ أخْلُصُ منْ غُمْرٍ جاهِلٍ.

Volume: 4 Issue: 2

أو ذي غِمْرٍ متَجاهِلٍ. يضَعُ مني لهَذا الوضْعِ. ويندّدُ بأنّهُ منْ مَناهي الشّرْعِ. ومَنْ نقَدَ الأشْياءَ بعَينِ المعْقولِ. وأنْعَمَ النّظَرَ في مَباني الأصولِ. نظَمَ هذِه المقاماتِ. في سِلْكِ الإفاداتِ. وسلَكَها مسْلَكَ المَوْضوعاتِ. عنِ العَجْماواتِ والجَماداتِ. ولمْ يُسْمَعْ بمَنْ نَبا سمْعُهُ عنْ تِلكَ الحِكاياتِ. أو أتْمّ رُواتَها في وقْتٍ من الأوْقاتِ. ثمّ إذا كانَتِ الأعْمالُ بالنّيّاتِ. وبها انْعِقادُ العُقودِ الدّينِيّاتِ. فأيُّ حرَجٍ على مَنْ أنْشأ مُلَحًا للتّنْبيهِ. لا للتّمويهِ. ونَحا به منحَى التّهْذيبِ. لا الأكاذيبِ؟ وهلْ هُوَ في ذلِك إلا بمنزِلَةِ مَنِ انتَدَبَ لتعْليمٍ. أو هدَى إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ؟ " (الشريشي، 2004)

وقول التنوخي: "وجعلت قصدي إلى الإيجاز والاختصار، وإسقاط الحشو وترك الإكثار وإن كان المجتمع من ذلك جملة يستطيلها الملول، ولا يتفرغ لقرائتها المشغول، وأنا راغب إلى من يصل كتابي هذا إليه، وينشط للوقوف عليه، أن يصفح عما يعثر به من زلل، ويصلح ما يجد فيه من خطأ أو خلل، والله أسأل السلامة من المعاب، والتوفيق لبلوغ المحاب والإرشاد إلى الصواب، ويفعل الله ذلك بكرمه إنّه جواد وهّاب." (التنوخي، 1978م)

البعد التداولي في خطاب المقدمات:

إنّ خطاب المقدمات يكتسي بعدا تداوليا يتمظهر في صوغ المصنّف الأديب مقدمته " على هيئة مخصوصة يريد أن يظهر عليها خطابه وحرصه على أن يستحضر قارئا ممكنا يجيبه عن أسئلة من مثل، ما الأدب؟ لم نقرأ الكتاب؟ كيف نقرأ الكتاب؟ "وهو ما يطالعنا أيضا في الخطابة الأرسطيّة الّتي تعطي أوّل الكلامExordium دورا حاسما في الحمل على الاقتناع. ويمتدّ أثره إلى جوهر خطبة التقديم بالإجابة عن سؤال، لم نقرأ الكتاب؟ انظر: (عبيد، 2021)

عند النظر إلى مقدمات الكتب التي أنشئت لغرض واحد فإن الحمدلة تكون مرتبطة بذلك الغرض، أمّا إذا كان الكتاب كتاب اختيارات عامة كالأمالي مثلا فإن الحمدلة تحكي قصة أخرى.

ولتوضيح ذلك نستقرئ متون بعض المقدمات كمقدمة أمالي أبي علي القالي ومقدمة التنوخي في الفرج بعد الشدة.

حين نستقرئ خطاب المقدّمات سنجد أنّ الحمدلة في مقدّمات كتب التراث التي تكون ذات غرض واحد تعلن عن موضوعها منذ البدء بالحمدلة، والأمر ليس كذلك في مقدّمات الكتب المتعدّدة الأغرض أو الكتب الجامعة. يتضح ذلك في مقدمة التنوخي في فاتحة 'كتاب الفرج بعد الشدّة' " الحمد لله الّذي جعل بعد الشدّة فرجا ومن الضرّ والضّيق سعة ومخرجا ولم يُخْلِ محنة من مُنحة ولا نقمة من نعمة "(التنوخي، 1978م)

ومثله قول ابن المعتز في طبقات الشعراء:" الحمد لله الذي أفحم مصاقع الفصحاء بمعجز كلامه، وأخرس شقشق الفصحاء بترتيبه ونظامه، وبهر العرب العرباء باختراع مفتحه وختامه، الذي لا يرقى نَزُّ الأوهام إلى زلال كنه جبروته، ولا يستحوذ لهام الأفهام على سبر نقطة من مساحة بيداء ملكوته، ولا تؤمل أفكار الحكماء الراسخين إدراك لمعة من أثيرات لاهوته. ميّز نوع الإنسان عن جنسه بفضل الكلام." (المعتز، 1981م ط4)

وقول ابن قتيبة الدينوري في مقدمة عيون الأخبار:" الحمد لله الذي يعجز بلاؤه صفة الواصفين، وتفوت آلاؤه عدد العادين، وتسع رحمته ذنوب المسرفين، والحمد الله الذي لا تحجب عنه دعوة، ولا تخيب لديه طلبة، ولا يضل عنده سعي، الذي رضي عن عظيم النعم بقليل الشكر، وغفر بعقد الندم كبير الذنوب، ومحا بتوبة الساعة خطايا السنين.

والحمد لله الذي ابتعث فينا البشير النذير السراج المنير، هاديا إلى رضاه، وداعيا إلى محابته، ودالا على سبيل جنته، ففتح لنا باب رحمته، وأغلق عنا باب سخطه. صلى الله وملائكته المقربون عليه وعلى آله وصحبه أبدا ما طما بحر، وذر شارق، وعلى جميع النبيين والمرسلين." (الدينوري، 1453هـ/ 2014م)

وربما كان الكتاب يتناول موضوعًا من التابوهات الثقافية في الثقافة العربية والثقافة الإسلامية، ولكنّ الكاتب كي يسوّغ طرح هذا الموضوع ويجعله في سياق المقبولات لا الممنوعات يفتتح الحمدلة بما يوشي بأن لا عيب في المعرفة ولكن العيب في التطبيق. نقرأ مثلا في مقدمة كتاب الروض العاطر في نزهة الخاطر" قا الشيخ الإمام العلامة الهمام سيدي محمد النفزاوي رحمه الله ورضي عنه: الحمد لله الّذي جعل اللذة الكبرى للرجال في فروج النساء وجعلها للنساء في أيور الرجال (ثم ذكر صنوفًا من استمتاع الرجال بالنساء والنساء بالرجال). وأغمسهن في بحر البهاء والسلوان والمسرة بالملابس الحقيقية والمحزم البهي والمبسم الشهي فسبحانه من كبير متعال القاهر الذي قهر الرجال بمحبتهن والاستكان إليهن والارتكان، ومنهن العشرة والرحلة وبهن الإقامة والانتقال المذل الّذي أذلّ قلوب العاشقين بالفرقة، وأحرق أكبادهم بنار الوجد والهوان والسكينة والتخضع شوقًا إلى الوصال. أحمده حمد عبد ليس له عن محبة الناعمات مروغ." (النفزاوي، بدون تاريخ) (الجمل، 1997، الصفحات 36-37)

أمّا حمدلة الضرب الثاني من التأليف فتنعقد في الغالب الأعمّ على تمجيد الله بتعديد مطلق صفاته هذا إضافة إلى التشديد على اختصاصه بالبيان. يقول ابن عبد ربّه " الحمد لله الأوّل بلا ابتداء، الآخر بلا انتهاء، المنفرد بقدرته"(ابن عبد ربه، 1983م)

وقول أبي علي القالي في أماليه: " الحمد لله الذى جلّ عن شبَه الخليقة، وتعالى عن الأفعال القبيحة، وتنزّه عن الجور، وتكبّر عن الظلم، وعدل فى أحكامه، وأحسن إلى عباده، وتفرّد بالبقاء، وتوحّد بالكبرياء، ودبّر بلا وزير، وقهر بلا مُعين، الأوّلِ بلا غاية، و الآخِرِ بلا نهاية. الذى عزَب عن الأفهام تحديدُه، و تعذّر على الأوهام تكييفُه، و عميت عن إدراكه الأبصار، و تحيّرتْ فى عظمتهِ الأفكار، الشاهدِ لكلِّ نجوى، السامعِ لكل شكوى، والكاشفِ لكلِّ بلوى، الذى لا يحويه مكان، ولا يشتمل عليه زمان، ولا ينتقل من حال إلى حال، القادرِ الذى لا يدركه العجز، و العالِمِ الّذى لا يلحقه الجهل، و الجوادِ الذى لا يَنزَح، والعزيزِ الّذى لا يخضَع، و الجبّارِ الّذى قامتِ السمواتُ بأمره، ورجفتِ الجبالُ من خَشيته" (القالي، 2008م/ 1429هـ، صفحة 14)

هذا الجزء من مقدمة القالي في أماليه تعبّر افتتاحية خطاب التقديم (خطبة الكتاب)، وهي لم تخرج عن سمت الخطبة التي سادت في الثقافة العربية الإسلامية من ضرورة البدء بحمد الله، ولكننا إذا نظرنا إلى ذلك بعيدًا عن بنيتها الشكلية فهي لم تعد شكلا خطابيا أو تقليدًا كتابيا بل تنزاح إلى ما وراءها من إمكانات (قصة الكتاب أو الكتابة) وخلفية التأليف وسياق الثقافة.

إنّ هذا النصّ ينفتح على علاقات صريحة وأخرى ضمنية مع نصوص أخرى، إنّها حالة من التعالق النصّي والخطابي في آن واحد، هذا الجزء من مقدمة القالي لا تقتصر دلالته على سطحه ولا على تركيبه وعناصره، بل يتجاوز ذلك ويتصل بخطابات أخرى قد يكون بعضها ليس من جنسه، أيّ أنّ هذا الخطاب بانفتاحه وتعدده تغدو دلالته غير مقتصرة على عناصر النصّ الداخليّة وحدها." ومن هنا تكتسب المقدّمات طابعا إنتاجيّا مؤدّاه التفاعل الخلاّق بين القارئ والنصّ والخارج سواء أكان نصيّا أم غير نصيّ." (عبيد، 2021، صفحة 71)

إنّ الأديب وهو يكتب مقدمته يستحضر الأساليب المستقرّة في الخطبة والرسالة ليكون خطاب التقديم مرتبطًا في بلاغته ببلاغة الخطبة وبلاغة الرسالة، وهو ما يكشف عن إحاطة الأديب بسنن المؤسسة الأدبية التي تحكم أنواع القول البلاغي في العصر (أيا كان ذلك العصر)، ولوعي الأديب بأنّ متن كتابه يحتاج إلى حسن ابتداء يضمن معه الأديب توجيه القارئ إلى غايته والزّجّ به في أتون هدفه الّذي من أجله ألف كتابه.

Volume: 4 Issue: 2

علاقة كاتب المقدمة بالمتلقي:

يتعامل المؤلف الأديب مع المتلقي على أنّه متلقٍ يوجه له خطابه خطيًّا باتجاه أفقي أو باتجاه عمودي، ولكي يضمن تنزّل خطابه وفق رؤاه وأهدافه ينبغي أن يكون خطابه إليه حجاجيا مؤثرًا. ومؤسسا وفق تقاليد المؤسسة الأدبية لتلج بالقارئ إلى جمهورية الأدب.

حكمة الأديب إذن تكمن في توجيه المتلقي منذ بدء الكلام. التنوخي كان صارمًا في منهجه، وواضحًا في مقصده فكانت فاتحة خطبة الكتاب (الحمدلة) مبشرة بموضوعة الفرج بعد الشدة، وبأنها سنة من سنن الله في خلقه (الذي جعل بعد الشدة فرجا):" بسم الله الرحمن الرحيم وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب الحمد لله الذي جعل بعد الشدة فرجا، ومن الضيق سعة ومخرجا، ولم يخل محنة من منحة، ولا نقمة من نعمة، ولا نكبة ورزية، من موهبة وعطية، وصلى الله على سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين) ." (التنوخي، 1978م)

وعلى هذا المنوال يُقرأ قول صاحب خزانة الأدب في مقدمته:" نحمدك يا من شواهد آياته غنية عن الشرح والبيان، ودلائل توحيده متلوة بكلّ لسان. صل وسلّم على رسولك محمد المؤيد بقواطع الحجج والبرهان." (البغدادي، ط1، 1387هـ، 1967م)

يقوم الأديب بعمل استباقي واعٍ، ويخطط لصورة التلقي الموجّهة للمتلقي (أيًّا كان المتلقي)، فالأديب يقطع على القارئ أي محاولة للانزياح عن مرامي المتن منذ افتتاحه لمقدمته، و لايزال يحاصره في كلّ أجزاء المقدمة ليجعله أمام هدفه المنشود بصورة مباشرة.

وقد أشار مصنفو المقدمات إلى علل تأليفهم للمقدمات التي لم تخرج عمّا ذكره حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون:" إنَّ التأليف على سبعةِ أقسام، لا يؤلِّف عالمٌ عاقلٌ إلا فيها، وهي إمّا شيء لم يسبق إليه فيخترعُه، أو شيء ناقص يتممه، أو شيء مغلق يشرحه، أو شيءٌ طويل يختصره دون أنْ يخلَّ بشيء من معانيه، أو شيء متفرّق يجمعه، أو شيء مختلطٌ يرتّبه، أو شيء أخطأ فيه مصنّفه فيصلحه." (حاجي خليفة، 1941م)

وظائف خطاب المقدمات:

1- الوظيفة الإشهارية:

وتتم هذه الوظيفة من خلال الترويج أو التنفيق للمنتج الخطابي، إذ تتحدد قيمة المقدمات بمرجعيتين، الأولى المقام الّذي سيقت فيه هذه المقدمة، وهو عادة ما يكون مقامًا تبليغيًا أو ترويجيًا إشهاريًا، والمرجعية الثانية تتعلّق بتعالقات هذه المقدمة مع غيرها من النصوص أو ما يمكن أن نصطلح عليه بمرجعية تناصية. ومن وظيفة الأديب واهتماماته أنْ يعرّف بكتابه ويروّج له (يشهره)، فإنّ الأديب يعرّف بموضوع كتابه، ليعرّف المتلقي بمنزلة هذا الموضوع وقيمته من المرء ثقافيا وأدبيا ومعيشيا ونفسيا ودينيا. ويوثقه عادة بمعارفه واطلاعه وخبراته وتجاربه، وهذا ما فعله التنوخي في مقدمة الفرج بعد الشدة، وما فعله عبد القاهر الجرجاني في الدلائل وما فعله الحريري في مقدمة مقاماته. فالتنوخي يشير في الجملة الأولى من فصل الخطاب إلى ما خبره في الدنيا من تقلّب بين خير وشرّ ونفع وضرّ، فيقول في ذلك:" فإنّي لما رأيت أبناء الدنيا متقلبين فيها بين خير وشر، ونفع وضرّ، ولم يكن لهم في أيام الرخاء، أنفع من الشكر والثناء، ولا في أيام البلاء، أنجع من الصبر والدعاء، لأنّ من جعل الله عمره أطول من عمرِ محنته، فإنّه سيكشفها عنه بتطوّله ورأفته، فيصير ما هو فيه من الأذى، كما قال بعض من مضى، ويروى للأغلب العجلي أو غيره:

الغمَراتُ ثُمَّ يَنجَلِيْنَا ثمَّتّ يَذهبْنَ فَلا يَجِينَا

ويروى:

الغمَراتُ ثُمَّ يَنجَلِيْنَه ثمَّتّ يَذهبْنَ فَلا يَجِينَه

وطوبى لمن وفّق في الحالين، للقيام بالواجبين.

وجدتُ من أقوى ما يفزع إليه، من أناخَ الدهرُ بمكروهه عليه، قراءةَ الاخبارِ التي تُنبئ عن تفضّل الله عزَّ وجلَّ على من حصلَ قبلَه في محصلِه، ونزلَ بهِ مثلَ بلائه ومُعضلِه، بما أتاحَه الله تعالى له من صنيعٍ أمسَكَ بهِ الأرماق، ومعونةٍ حلَّ بها من الخِناق، ولطفٍ غريبٍ نجَّاه، وفرجٍ عجيبٍ أنقذَه وتلافَاه، وإنْ خفيت تلك الأسباب، ولم يبلغْ ما حدَث من ذلك الفكرُ والحساب، فإنّ في معرفةِ المتحنِ بذلك شحذَ بصيرتِه في الصبرِ، وتقويةَ عزيمتِه على التسليم لله مالكِ كلِّ أمرٍ، وتصويبَ رأيهِ في الإخلاص، والتفويضِ إلى من بيده مُلكُ النواص، وكثيرًا إذا ما علم الله تعالى من وليه وعبده، انقطاعَ آمالِه إلا من عندِه، لم يَكلْه إلى سعيهِ وجهدِهِ، ولم يرضَ له باحتمالِه وطوقِه، ولم يخلِه من عنايتِه ورِفقِه، وأنا بمشيئة الله تعالى جامعٌ في هذا الكتاب، أخبارًا من هذا الجنس والباب، أرجو به انشراحَ صدورِ ذوي الألباب، عندما يَدهمهم من شدةٍ ومصاب، إذ كنتُ قد قاسيتُ من ذلك في محنٍ دَفعتُ إليها ما يحنو بي على الممتحنين، ويحدوني على بذل الجُهد في تفريجِ غمومِ المكروبينَ." (التنوخي، 1978م)

أمّا المرجع الثاني فتحدّده منزلة المصنّف الأدبيّ في خارطة الأجناس المماثلة أو المجاورة، وذلك بالإشارة إلى من سبقه في التأليف في غرضه مصحوبًا بمبررات التجاوز والتفوّق. يتجلّى ذلك في مقدمة التنوخي السّابقة:" وكنتُ قد وقفت في بعض محنِي على خمس أو ست أوراق جمعها أبو الحسن علي بن محمد المدائني، وسماها: "كتاب الفرج بعد الشدة والضيقة " وذكر فيها أخبارا تدخل جميعها في هذا المعنى فوجدتها حسنة ولكنها لقلتها أنموذج صبرة، فلم يأت بها، ولا سلك فيها سبل الكتب المصنفة، ولا الأبواب الواسعة المؤلفة، مع اقتداره على ذلك، ولا أعلم غرضه في التقصير، ولعله أراد أن ينهج طريق هذا الفن من الأخبار، ويسبق إلى فتح الباب فيه بذلك المقدار، واستثقل جميع ما عنده فيه من الآثار.

ووقع إليَّ كتاب لأبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا قد سماه " :كتاب الفرج بعد الشدة ". في نحو عشرين ورقة، والغالب عليه أحاديث عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأخبار عن الصحابة والتابعين رحمهم الله تعالى يدخل بعضها في معنى طلبته، ولا يخرج عن قصده وبغيته، وباقيها أحاديث وأخبار في الدعاء والصبر، والأرزاق، والتوكل، والتعرض، للشدائد بذكر الموت، وما يجرى مجرى التعازي ويتسلى به عن طوارق الهموم، ونوازل الاحداث والغموم، ويستحق عليها من الثواب في الأخرى، مع التمسك بالحزم في الأولى. وهو عندي خال من ذكر فرج بعد شدة، غير مستحق أن يدخل في كتاب مقصور على هذا الفن، وضمّن الكتاب نبذًا قليلة من الشعر، وروى فيه شيئا يسيرا جدا مما ذكره المدائني، إلا أنّه جاء به بلا إسناده له إلا عن المدائني.

وقرأتُ أيضًا كتابًا للقاضي أبي الحسين عمر بن القاضي أبي عمرو محمد بن يوسف القاضي رحمهم الله في مقدار خمسين ورقة قد سماه: "كتاب الفرج بعد الشدة ". أودعه أكثر ما رواه المدائني وجمعه وأضاف إليه أخبارا أخر، أكثرها حسن، وفيها ما هو غير مماثل عندي لما عزاه، ولا مشاكل لما نحاه، وأتى في أثنائها بأبيات شعر يسيرة، من معادن لا مثالها جمة كثيرة، ولم يلم بما أورده ابن أبي الدنيا، ولا أعلم أتَعمَّدَ ذلك أم لم يقف على الكتاب؟!

ووجدت أبا بكر ابن أبي الدنيا والقاضي أبا الحسين لم يذكرا للمدايني كتابا في هذا المعنى، فإن لم يكونا عرفا هذا فهو طريف، وإنْ كانا تعمدا ترك ذكره تنفيقًا لكتابيهما وتغطية على كتاب الرجل فهو أطرف، ووجدتهما قد استحسنا استعارة لقب كتاب المدائني على اختلافهما في الاستعارة، وحيدهما عن أن يأتيا بجميع العبار، ، فتوهمت أنّ كل واحد منهما لما زاد على قدر ما أخرجه المدائني اعتقد أنّه أولى منه بلقب كتابه، فإن كان هذا الحكم ماضيا، والصواب به قاضيا، فيجب أن يكون من زاد عليهم فيما جمعاه أولى منهما بما تعبا في تصنيفه ووضعاه، فكان هذا من أسباب نشاطي لتأليف كتاب يحتوي من هذا الفنّ على أكثر مما جمعه القوم وأشرح، وأبينُ للمغزى، وأكشفُ وأوضح، وأنْ أُخالفَ مذهبهم في التّصنيف، وأَعدلَ عن طريقتهم في الجمع والتأليف،

Volume: 4 Issue: 2

فإنّهم نسّقوا ما أودعوه كتبهم جملة واحدة، وربّما صادفَتْ مللًا من سامعها، أو وافقت سآمة من الناظرين فيها، فرأيت أن أنوع الأخبار، وأجعلها أبوابًا، ليزداد من يقف على الكتب الأربعة بكتابي من بينها إعجابا، وأن أضع ما في الكتب الثلاثة في مواضعه من أبواب هذا الكتاب، إلا ما اعتقد أنه لا يجب أن يدخل فيه، وأنّ تركَه وتعديه أصوب وأولى. والتشاغل بذكر غيره مما هو داخل في المعنى ولم يذكره القوم أليق وأحرى، وأنْ أعزوَ ما أُخرجُه مما في الكتب الثلاثة إلى مؤلفيها تأدية للأمانة، واستيثاقا في الرواية، وتبيينا لما آتي به من الزيادة، وتنبيها على موضع الإفادة. فاستخرت الله عز وجلّ ذكره، وبدأت بذلك في هذا الكتاب ولقبته بكتاب: " الفرج بعد الشدة ." تيمنا لقارئه بهذا المقال" (التنوخي، 1978م)

هذه المقدمة — من وجهة نظري — سابقة على زمانها بتأكيدها على قضية الأمانة العلمية، وحقوق الملكية الفكرية، فلم يمرّ التنوخي على من سبقه دون أن يلفت إلى حقّ المؤلّف، فوجّه نقده ظاهرًا أو باطنًا إلى أولئك الكتّاب الّذين ينقلون من غيرهم دون أنْ يحفظوا حقّهم في الإشارة إلى كتبهم. بل عدّ ذلك من باب الخيانة، وأكّد على ذلك التعريض بالنّصّ على وجوب تأدية الأمانة حين قال:" وأنْ أعزوَ ما أُخرجُه مما في الكتب الثلاثة إلى مؤلفيها تأدية للأمانة، واستيثاقا في الرواية."

وعلى المنهج ذاته من الإشارة إلى من سبقه، مع مبررات التأليف والتجاوز، ممّا يعدّ تنفيقًا لكتابه، نجد أبا قاسم الحريري يشير بجلاء في مقدمة مقاماته:". وبعْدُ فإنّهُ قدْ جرَى ببَعْضِ أنْديَةِ الأدَبِ الذي ركدَتْ في هذا العصْرِ ريحُهُ، وخبَتْ مصابيحُهُ، ذِكْرُ المقاماتِ التي ابْتَدعَها بَديعُ الزّمانِ، وعلاّمَةُ همَذانَ، رحِمَهُ اللهُ تعالى، وعَزا إلى أبي الفتْحِ الإسكنْدَريّ نشْأتَها، وإلى عيسى بنِ هِشامٍ روايتَها، وكِلاهُما مجْهولٌ لا يُعرَفُ، ونَكِرةٌ لا تتَعرّفُ. فأشارَ مَنْ إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ، إلى أنْ أُنْشئَ مَقاماتٍ أتْلو فيها تِلْوَ البَديعِ، وإنْ لمْ يُدْرِكِ الظّالِعُ شأوَ الضّليعِ، فذاكَرْتُهُ بما قيلَ فيمَنْ ألّفَ بينَ كَلِمتَينِ، ونظَمَ بيْتًا أو بيتَينِ، واسْتقَلْتُ منْ هذا المقامِ الذي فيهِ يَحارُ الفَهْمُ، ويفرُطُ الوهْمُ، ويُسْبَرُ غوْرُ العقْلِ، وتتَبَيّنُ قيمَةُ المرْءِ في الفضْلِ، ويُضْطَرّ صاحِبُه إلى أن يكونَ كحَاطِبِ لَيْلٍ، أو جالِبِ رَجْلٍ وخَيْلٍ، وقلّما سلِمَ مِكْثارٌ، أو أُقيلَ لهُ عِثارٌ. فلمّا لمْ يُسْعِفْ بالإقالَةِ، ولا أعْفَى منَ المقالَةِ، لبّيْتُ دعْوَتَهُ تلبِيَةَ المطيعِ، وبذَلْتُ في مُطاوَعَتِه جُهْدَ المستَطيعِ، وأنْشأتُ على ما أُعانيه منْ قَريحةٍ جامِدةٍ، وفِطْنَةٍ خامِدةٍ، ورَويّةٍ ناضِبَةٍ، وهُمومٍ ناصِبَةٍ، خمْسينَ مَقامةً تحْتَوي على جِدّ القَوْلِ وهزْلِه، ورَقيقِ اللّفْظِ وجزْلِه، وغُرَرِ البَيانِ ودُرَرِه، ومُلَحِ الأدَبِ ونوادِرِه، إلى ما وشّحْتُها بِهِ من الآياتِ، ومَحاسِنِ الكِناياتِ، ورصّعْتُهُ فيها من الأمْثالِ العربيّةِ، واللّطائِفِ الأدبيّةِ، والأحاجيّ النّحْويّةِ، والفَتاوَى اللّغويّةِ، والرّسائِلِ المبتَكَرةِ، والخُطَبِ المحَبّرةِ، والمواعِظِ المنْكِيةِ، والأضاحيكِ المُلْهِيَةِ، ممّا أمْلَيْتُ جميعَهُ على لِسانِ أبي زيْدٍ السّرُوجيّ، وأسْنَدْتُ روايتَهُ إلى الحارِثِ بنِ هَمّامٍ البِصْريّ. وما قصَدْتُ بالإحْماضِ فيهِ إلا تنْشيطَ قارِئِيهِ، وتكْثيرَ سَوادِ طالِبِيهِ، ولمْ أُودِعْهُ منَ الأشْعارِ الأجْنبيّةِ إلا بيْتَينِ فذّينِ أسّسْتُ علَيْهِما بُنْيَةَ المقامَةِ الحُلْوانيّةِ. وآخَرَينِ توأمَينِ ضمّنْتُهُما خَواتِمَ المقامَةِ الكرَجيّةِ، وما عدا ذلِك فخاطِري أبو عُذْرِه، ومُقْتَضِبُ حُلْوِهِ ومُرّهِ. هذا معَ اعْترافِيْ بأنّ البَديعَ رحِمَهُ اللهُ سَبّاقُ غاياتٍ، وصاحِبُ آياتٍ، وأنّ المتصَدّيَ بعدَهُ لإنْشاءِ مَقامةٍ – ولوْ أُوتِيَ بَلاغَةَ قُدامَةَ – لا يغْترِفُ إلا من فُضالَتِه، ولا يسْري ذلِك المسْرى إلا بدَلالَتِهِ." (الشريشي، 2004)

ما من مسوّغٍ لأديب (ظالع) أنْ يخترق كثافة نصّ الأديب (الضليع) الّذي تتداوله المحافل الأدبيّة إلا بسطوة سلطان تذعن له الجهات، وتصغي له الآذان، يستند إليه ذلك الأديب الظالع ليكون ذلك الفعل مهمة لا مناص عنها ولا حول منها. وحتى لا تخضع الذّات المنتجة لخطر الرّفض، وتسلم من لوم اللائمين كان على الأديب الظالع (الحريري) أنْ لا يبدو للجمهور أنّه راغب في نقض ما تداولته أندية الأدب من مقامات الأديب الضليع (بديع الزمان)، ألقى الأديب الظالع عذاره على من طاعته حكم، وأنّ قبوله صار لا مفرّ منه:" فذاكَرْتُهُ بما قيلَ فيمَنْ ألّفَ بينَ كَلِمتَينِ، ونظَمَ بيْتًا أو بيتَينِ، واسْتقَلْتُ منْ هذا المقامِ الذي فيهِ يَحارُ الفَهْمُ، ويفرُطُ الوهْمُ، ويُسْبَرُ غوْرُ العقْلِ، وتتَبَيّنُ قيمَةُ المرْءِ في الفضْلِ، ويُضْطَرّ صاحِبُه إلى أن يكونَ كحَاطِبِ لَيْلٍ، أو جالِبِ رَجْلٍ وخَيْلٍ. وقلّما سلِمَ مِكْثارٌ، أو أُقيلَ لهُ عِثارٌ. فلمّا لمْ يُسْعِفْ بالإقالَةِ، ولا أعْفَى منَ المقالَةِ، لبّيْتُ دعْوَتَهُ تلبِيَةَ المطيعِ، وبذَلْتُ في مُطاوَعَتِه جُهْدَ المستَطيعِ."

هنا إذن صراع بين الأنا (المتكلمة / المبدعة) والآخر (الغائب في صورته البشرية ، كضمير غيبة نحوية / الحاضر في صورته المبدعة (بديع الزمان) صاحب المثال الأوّل للمقامات، ومبدعها الّذي غدا بها بديع زمانه). ضمير الحضور في المتكلّم الغائب يبحث عن حضوره أمام ضمير الغائب الحاضر، لا بد – إذن – من حدوث تزاحم فإزاحة فتبادل أدوار يغدو فيه الحاضر غائبا والغائب حاضرًا.

"يَدخُلُ المقلِّدُ في تنافُسٍ مَعَ النّموذجِ، ويحاولُ التفوُّقَ عليْهِ. أنْ تقلّدَ معناهُ: أنْ تُظهرَ تواضُعًا وكبرياءً في آنٍ واحدٍ – لا أحدَ كالحريريّ قدْ توافَرَ فيهِ هذَا المطلبُ المزدوجُ، فَمَعَ إظهارِهِ تقديرًا كبيرًا للهمذانيّ استطاعَ إزاحتَهُ إلى مركزٍ ثانويٍّ. وَيلاحِظُ القلقشَنْدِيُّ أنَّ فضائلَ مقاماتِهِ كانتْ عظيمةً، لدرجةِ أنْ تعلَّقَ بِهَا الجميعُ، وأنَّهُ في فورَةِ التعلُّقِ الّتي أثارَتْهَا، أُنْسِيَتْ مقاماتُ الهمذانِي وَصَارَتْ كالمرفوضَةِ. وكانَ للحريريّ– كذلكَ – مقلّدونَ كُثُرٌ، سواءٌ في العربيةِ أو الفارسيّةِ أو السّريانيّةِ أو العبريّةِ. إنَّ تاريخَ الأدبِ – في المجالِ الأدبيّ – لَمْ يُعِرْ كبيرَ اهتمامٍ لهؤلاءِ المقلّدينَ لمقلّدٍ." (كليلطو، 1993م)

الحريري – الحاضر بشخصه الغائب بتداولية أدبه، كونه أديبا في قمة البلاغة العليا آنذاك عن ساحة الأدب الرفيع الذي صارت مقامات بديع الزمان في زمانه حاضرة متداولة — ينافح ليستبدل بحضور بديع الزمان حضوره في المشهد الأدبي، وبغيابه غياب بديع الزمان، حتى تغدو مقاماته (أي بديع الزمان) كالمنسية.

هنالك إذن صراع على مساحة التداول بين المنتج القديم للمقامات، والّذي أصبح أنموذجًا قارًّا وبين منتج جديد للمقامات يريد لنفسه أن يكون الأنموذج الجديد الّذي يزيح الأنموذج القديم من المركز إلى الهامش، كي يتحوّل هو من الهامش إلى المركز.

هذا التحوّل لن يكون مبررًا ما لم يستند إلى تقليد ساد في ثقافة العرب آنذاك وهو أنْ يدعم هذا التحوّل صاحب رأي أو علم أو سلطة فكان أن يأتي الطلب ممن " إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ " (الشريشي، 2004)

ليتحوّل الطلب من الرأس " من إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ " إلى القواعد الشعبية مطلبًا عامًّا يزيح المتداول من مقامات البديع ليحلّ مكانها مقامات الحريري.

هذا التحوّل المنشود له ما يبرر ضرورته، إنها ضرورة تداولية " فإنّهُ قدْ جرَى بِبَعْضِ أنْدِيَةِ الأدَبِ الذي ركدَتْ في هذا العصْرِ ريحُهُ. وخبَتْ مصابيحُهُ ذكر المقامات التي أنشأها بديع الزمان" (الشريشي، 2004) فلقد ركدت في عصر الحريري ريح الأدب، وخبت مصابيحه، ولابد له من أنْ يقوم بمهمة إنعاش الأدب في هذه الأندية وإضاءة مصابيحه.

يسعى المصنّف إلى إنزال مصنفه الموقع الّذي يرومه بين النصوص السابقة عليه، وفي خارطة الأجناس بالتحكّم في مساحة أفق الاستقبال لدى المتلقين، بحيثُ يعمل على توجيه المتلقي إلى الجهة التي هو يريدونها، منعًا لأي احتمال خروج عن السنن السائدة في الاستقبال والتلقي.

وبذلك يقوم المصنّف بفعلين: يثبّت نصّه بين الأجناس الأدبية في جمهورية الأدباء، ويكسب نصّه قوةً وتميّزًا عن النصوص الأخرى في خارطة الأجناس.

2- **وظيفة تميّز الخطاب:**

وقد أشرنا إلى مضمونها في مقدمة التنوخي وفي مقدمة الحريري، وهي ما تشير إلى تفوّق المتن المقدّم له على ما سبقه في مجاله.

نعود إلى مقدمة الجرجاني في الدلائل، إذ يقول:" هذا كلام وجيز يطّلع به الناظر على أصول النحو جملةً، وكلّ ما يكون به النظم دفعةً، وينظر منه في مرآة تريه الأشياء المتباعدة الأمكنة قد التقت له حتى رآها في مكان واحدٍ، ويرى بها مشئمًا قد ضمّ إلى

Volume: 4 Issue: 2

معرق، ومغربًا قد أخذَ بيد مشرّق، وقد دخلت بأخرةٍ في كلامٍ أصغى إليه وتدبّرهُ تدبُّر ذي دينٍ وفتوةٍ دعاهُ إلى النظر في الكتاب الّذي وضعناه، وبعثه على طلبِ ما دونّاه." (الجرجاني، 1987م/1407هـ)

إنّ هذا الكتاب يريه الأشياء قد التقت بعدما كانت مشتتة في الكتب والأمكنة، وجمع فيه المشئم والمعرق والمغرب والمشرق حتى استوى في كتاب ييسر إليه النظر فيه، ويدعوه إلى تدبّره.

وهنا تبرز لحظة التفرّد والتميّز التي تعلي كعب هذا الكتاب على ما سبقه في مجاله.

ومنه قول أبي علي القالي:" وأودعته فنونا من الأخبار، وضروبًا من الأشعار وأنواع من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أنى لم أذكر فيه بابًا فى اللغة إلا أشبعته، ولا ضربًا من الشعر إلا اخترته، ولا فنًا من الخبر إلا انتخلته ولا نوعًا من المعاني والمثل إلا استجدته، ثم لم أخله من غريب القرآن، وحديث الرسول صلى االله عليه وسلم، على أنى أوردت فيه من الإبدال ما لم يورده أحد، وفسّرت فيه من الإتباع ما لم يفسره بشر، ليكون الكتاب الذى استنبطه إحسان الخليفة جامعا، والديوان الذى ذكر فيه اسم الإمام كاملا" (القالي، 2008م/ 1429هـ)

هذه الوظيفة تضع خطاب المصنّف في خارطته الأجناسية، مستحضرًا ما سبقه من خطابات لمحاورتها وللإشارة إلى تفوقه عليها وتجاوزها، بما تميّز به من الفنون والاختيارات، وإيراده فيه ما لم يورده أحد قبله، وتفسيره ما فيه بما لم يفسره قبله بشر، كلّ ذلك يمنح هذا الكتاب تفردًا على ما سبقه، يجعله جديرًا باستحسان الخليفة، مناسبًا لمقام الإمام الّذي أوعز بكتابته وتأليفه.

3- **وظيفة إجابة الطلب**: (الطلب الصريح والطلب الضمني / مجازًا)

فيكون المصنّف إجابة لطلب من ذي شأن أو منصب أو ذي علم، وهي في اعتقادي حيلة ترويجية يلجأ إليها الأديب، إمّا ليعطي مدونته صفة العلو والقداسة، كما فعل القالي في أماليه، حين قال:" والعلم يُذكر بالرجاحة طالبُه، ويُنعت بالنباهة صاحبُه، ويَستحِق الحمدَ عند كل العقلاء حاويه، ويستوجبُ الثناءَ من جميع الفضلاء واعيه، ويفيد أسنى الشرف مشرفُه، ويكتسب أبقى الفخر معظِّمُه، فغبرتُ برهة ألتمس بنشره موضعا، ومكثتُ دهرا أطلب لإذاعته مكانا، وبقيتُ مدة أبتغى له مشرِّفا وأقمت زمنًا أرتاد له مشتريا، حتى تواترت الأنباء المتفقة، وتتابعت الصفاة الملتئمة، التى لا تخالجها الشكوك، ولا تمازجها الظنون، بأنه مشرفه فى عصره أفضل من ملك الورى، وأكرم من جاد باللهى، وأجود من تعمم وارتدى، وأمجد من ركب ومشى، وأسود من أمر ونهى، سمام العدى، فياض الندى، ماضى العزيمة، مهذب الخليقة، محكم الرأي، صادق الوأى، بذّال الأموال، محقق الآمال، مفشى المواهب، معطى الرغائب، أمير المؤمنين، وحافظ المسلمين، وقامع المشركين، ودامغ المارقين، وابن عم خاتم النبيين، محمد صلى االله عليه وسلم، (عبد الرحمن بن محمد) محيي المكارم، ومبتني المفاخر، الذى إذا رضي أغنى، وإذا غضب أردى، وإذا دُعي أجاب، وإذا أُستصرِخ أغاث، وأن معظّمَه ومشتريه، وجامعه ومقتنيه، ربيع العفاة، وسم العداة، ذو الفضل والتمام، والعقل والكمال، المعطي قبل السؤال، والمنيلُ قبل أن يُستنال (الحكمُ) وليُّ عهد المسلمين، وابن سيد العالمين أمير المؤمنين (عبد الرحمن بن محمد) الإمام العادل، والخليفة الفاضل، الذى لم ير فيما مضى من الأمراء شبهه، ولا نشأ فى الأزمنة من الكرماء مثله، ولا ولد النّساء من الأجواد نظيره، ولا ملّك العباد من الفضلاء عديله، فخرجت جائدًا بنفسى، باذلًا لحشاشتى، أجوب متونا القفار، وأخوض لُجج البحار، وأركب الفلوات، وأتقحَّم الغمرات، مؤملا أن أوصل العلق النفيس إلى من يعرفُه، وأنشر المتاع الخطير ببلدِ مَن يعظّمه، وأشرّف الشريف باسم من يشرّفه." (القالي، 2008م/ 1429هـ).

ابن القالي إذن استجاب لطلب عبد الرحمن بن محمّد لأنه أهل لهذا العلق النفيس.

وقد يلجأ الأديب إلى تبرير تدوين كتابه في فنّ بلغ فيه من سبقه الغاية والمرام، وصار به صاحب الغايات، وإمام التفرّد في المجال، فيبرر إقدامه على التأليف في هذا المجال ومزاحمة الظليع في المجال بأمر من صاحب سلطة، فلا مرر للإطاحة – بالظليع –

في مجاله إلّا بالإستناد إلى ذي الشأن كي يبرر لجمهور المتلقين تطاوله على قامة مبدعة متميزة، وهو ما فعله الحريري حين استند إلى " من إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ " ليزيح المتداول من مقامات البديع ليحلّ مكانها مقامات الحريري.

"فأشارَ مَنْ إشارتُه حُكْمٌ، وطاعَتُه غُنْمٌ، إلى أنْ أُنْشئَ مَقاماتٍ أتْلو فيها تِلْوَ البَديعِ، وإنْ لمْ يُدْرِكِ الظّالِعُ شأوَ الضّليعِ، فذاكَرْتُهُ بما قيلَ فيمَنْ ألّفَ بينَ كَلِمتَينِ، ونظَم بيْتًا أو بيتَينِ، واسْتقَلْتُ منْ هذا المقامِ الذي فيهِ يَحارُ الفَهْمُ، ويفرُطُ الوهْمُ، ويُسْبَرُ غوْرُ العقْلِ، وتتَبَيّنُ قيمَةُ المرْءِ في الفضْلِ، ويُضْطَرّ صاحِبُه إلى أن يكونَ كحَاطِبِ لَيْلٍ، أو جالِبِ رَجْلٍ وخَيْلٍ، وقلّما سلِمَ مِكْثارٌ، أو أُقيلَ لهُ عِثارٌ. فلمّا لمْ يُسْعِفْ بالإقالَةِ، ولا أعْفَى منَ المقالَةِ، لبّيْتُ دعْوَتَهُ تلبِيَةَ المطيعِ، وبذَلْتُ في مُطاوَعَتِه جُهْدَ المستَطيعِ" (الشريشي، 2004)

4- الوظيفة النفعية:

حين يرى المصنف حاجة الناس إلى كتابه، ومنفعته لهم في مجاله وهو حينما يراه أنّه في خانة الإفادات، إذ يقدّم وظيفة تعليمية أو إرشادية أو أدبية، وعادة ما يشير المصنّفون في مقدّماتهم إلى مثل ذلك، تلميحًا أو تصريحًا، يقول الحريري:" ومَنْ نقَدَ الأشْياءَ بعَينِ المعْقولِ، وأنْعَمَ النّظَرَ في مَباني الأصولِ، نظَمَ هذِه المقاماتِ، في سِلْكِ الإفاداتِ، وسلَكَها مسْلَكَ المَوْضوعاتِ، عنِ العَجْماواتِ والجَماداتِ. ولمْ يُسْمَعْ بمَنْ نَبا سمْعُهُ عنْ تِلكَ الحِكاياتِ، أو أتَمّ رُواتَها في وقْتٍ من الأوْقاتِ، ثمّ إذا كانَتِ الأعْمالُ بالنِّيّاتِ، وبها انْعِقادُ العُقودِ الدّينِيّاتِ، فأيُّ حرَجٍ على مَنْ أنْشأ مُلَحاً للتّنْبيهِ، لا للتّمويهِ. ونَحا به منحَى التّهْذيبِ، لا الأكاذيبِ؟ وهلْ هُوَ في ذلِك إلا بمنزِلَةِ مَنِ انتَدَبَ لتعْليمٍ، أو هدَى إلى صِراطٍ مُستَقيمٍ؟ " (الشريشي، 2004)

ويتجلّى ذلك أيضًا في قول الآبي في مقدمة كتابه "نثر الدّر"، فقد بيّن أصناف المتلقين وذكر صنوف الاستفادة عند كلّ صنفٍ منهم، فقال:" وبعد، فإنّي رأيتُك – أمتعَ اللهُ بأدبك، وأمتع الأدب وأهله بك – حين سمعت بالجموع الكبير الّذي سمّيتُه" نزهة الأديب" ظننتني قصدتُ به قصد مَنْ يؤلّف كتابًا فيصنّفه أصنافًا، ويبوّبه أبوابًا، حتّى يتميّز فيه النثر عن النّظم، والجدّ عن الهزْل، والسمين عن الغثّ، والبارع عن الرذل، وتكثر فيه الأشكال والنّظائر، وتتشابه فيه الأوائل والأواخر، ولم تعلم أنّه جرى مجرى التّعليق، الّذي يحتوي على الجليل والدّقيق، ويُقرَن به القريب والسحيق، ويكون كاتبُه كحاطبِ الليل يجمع نبعًا وقتادًا، وجارفِ السيل يجمل منافع وأزبادًا، ويكون قارئُه كغائص البحر يغوص مرةً على الدّرّة الثمينة، وأخرى على الصدفة المهينة، حتى يخرج من الجدّ الشريف إلى المزح السخيف، ومن الجذل البديع إلى الهزل الشنيع، ومن فصيح المقال إلى العيّ المحال، ومن الموعظة التي تُدني إلى الربّ إلى النادرة التي تُغري بالذّنب. ورأيتُ ميلكَ من جمع ذلك إلى الكلام الموجز، واللّفظ المختصَر، واليسيرِ المستغرَب، والنادرِ المستطرَف دون الكثيرِ المبتذَل، والشائعِ المشتهر، وإلى الخطب القصار دون الإسهاب والإكثار، وإلى القرحة الواقفة من النثر دون الغرة السائلة من الشعر. وتصوّرتُ إيثارَك لأنْ يُجمع كلُّ شكلٍ إلى شِكله، ويقرنُ كلّ فصلٍ إلى مثله حتى يأخذ بعضُ الكلام برقاب كلّه، ويتّسق آخر الباب على أوّله. فصنّفتُ لك هذا الكتاب محتذيًا لتمثيلك متهديًا بدليلك. واقتصرتُ فيما أوردته فيه على الفِقَر القصيرة، والنوادر المليحة، والمواعظ الرقيقة، والألفاظ الرشيقة. وأخليته من الأشعار، ومن الأخبار الطّوال التي تجري مجرى الأسماء. وسمّيتُه " نثر الدرّ". فلا يعثر فيه من النظم إلا بالبيت الشّارد، والمصراع الواحد الّذي يرد في أدراج الكلام يتمّ به مقطعه، وأثناء خطابٍ يحسن منه موقعه. وهو كتاب ينتفعُ به الأديب المتقدّم، كما ينتفع به الشّادي المتعلّم، ويأنس به الزاهد المتنسّك، كما يأنس به الخليع المتهتّك، ويحتاج إليه الملك في سياسة ممالكه، كما يحتاج إليه المملوك في خدمة مالكه، وهو نعم العون للكاتب في رسائله وكتبه، وللخطيب في محاوراته وخطبه، وللواعظ في إنذاره وتحذيره، وللقاضي في إذكاره وتبصيره، وللزاهد في قناعته وتسلّيه، وللمتبتّل في نزاهته وتخلّيه. فأمّا النديمُ فغير مستغنٍ عنه في مسامرة رئيسه، وأمّا الملهِي فمضطر إليه عند مضاحكته وتأنيسه. وقد جعلته سبعة فصول، يشتمل كلّ فصل على أبواب يتشابه ما فيها، وتتقاربُ معانيها. وذكرتُ أبواب الفصول في أوائلها، ليقربَ الأمر على متناولها." (الآبي، 2004) ثم يبيّن كلّ فصل وما يفيده منه المتلقي وصنف ذلك المتلقي دون غيره. انظر (الآبي، 2004). ومثل ذلك يتجلّى في مقدّمة ابن المقفّع لكتاب كليلة ودمنة، " يبدي ابن المقفع في مقدمته

Volume: 4 Issue: 2

وعيًا عميقا بمستويات قراء الرسالة، فليس المتلقونَ كلّهم بمرتبة واحدة وليست غايتهم جميعا من قراءة الكتاب واحدة، بل ثمة تفاوت في مستويات المتلقين تبعًا للمستوى الثقافي الذي يتمتع به كلّ قارئ ولغايته من القراءة، والفئة العمرية التي ينتمي إليها. يقولابن المقفّع:" وأما الكِتاب فجَمعَ حكمةً ولهوًا، فاختاره الحكماء لحكمته، والسفهاء للهوه، والمتعلم من الأحداث ناشط في حفظه ما صار إليه من أمر يُربطُ في صدره ولا يدري ما هو، بل عرف أنه قد ظفر من ذلك بمكتوب مرقوم." (بيدبا 1974:ص52) (Walat، 2014)

ولا يعني ابن المقفّع أنّ الكتاب يجمع الحكمة واللهو ويشتمل عليهما، بل يعني من ذلك أنّ المتلقين لكتاب كليلة ودمنة ينتفعون من هذا الكتاب بحسب مستوياتهم، فالحكيم سيجد في هذه الحكايات التي تجري على ألسنة الحيوانات حكمة يستفيدها، وفلسفة تختبئ وراء كلّ حكاية من حكاياته. ويجد السفيه في الكتاب متعةً يلهو بها، بما للحكايات التي عن الحيوانات من تسلية وتشويق، ويجد الحدَث المتعلّم في هذا الكتاب وسيلة لتنشيط ذاكرته بالحفظ دون أن يتوصّل إلى قيمة الكتاب الأدبية والفلسفية.

ولهذا يسارع ابن المقفع إلى تبيان استراتيجية الكتاب حتى يتم تلقيه بطريقة صحيحة، فيقوم بتنبيه القارئ على الجانب الأهم في القصص الذي يمكن للقارئ أن يغفل عنه فيقول: "ينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم، وأضافه إلى غير مفصح، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالًا، فإنّ قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدر ما أريد بتلك المعاني، ولا أيّ ثمرة يُجتني منها، ولا أيُّ نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب. وإنه وإن كانت غايته منه استتمام قراءته إلى آخره دون معرفة ما يقرأ منه لم يعد عليه شيء يرجع إليه نفعه." (بيدبا 1974:53) (Walat، 2014).

5- الوظيفة الأخلاقية:

وهي المسؤولية التي يراها الأديب تجاه متلقيه الخاصين بدرجة أولى ثمّ العامين، هذه الوظيفة يشير إليها التنوخي بقوله:" فإنّ في معرفة الممتحن بذلك تشحيذ بصيرته في الصبر، وتقوية عزيمته على التسليم لله مالك كلّ أمر، وتصويب رأيه في الإخلاص، والتفويض إلى مَن بيده ملك النواص، وكثيرا إذا ما علم الله تعالى من وليه وعبده، انقطاع آماله إلا من عنده، لم يكله إلى سعيه وجهده، ولم يرض له باحتماله وطوقه، ولم يخله من عنياته ورفقه، وأنا بمشيئة الله تعالى جامع في هذا الكتاب، أخبارًا من هذا الجنس والباب، أرجو به انشراح صدور ذوي الألباب، عندما يدهمهم من شدّة ومصاب" (التنوخي، 1978م)

وليس ببعيد منه قول أبي علي القالي:" وجعلتُ غرضي أن أودعه من يستحقه، وأبديه لمن يعلم فضلَه، وأجلبه إلى من يعرف محلّه، وأنشره عند من يشرّفه، وأقصد به من يعظّمه، إذ بائع الجوهر، وهو حجر، يصونه بأجود صوان، ويودعه أفضل مكان، ويقصد به من يجزل ثمنه، ويحمله إلى من يعرف قدره، على أنّه لا يستحق بسببه أن يوصف بالفضل بائعُه ولا مُشتريه، ولا يستوجب أن يحمد من أجل المبالغة فى ثمنه مقتنيه، والعلمُ يُذكر بالرّجاحة طالبُه، ويُنعتُ بالنّباهة صاحبُه، ويستحقُّ الحمدَ عند كلِّ العقلاءِ حاويه، ويستوجبُ الثناءَ من جميع الفضلاءِ واعيه، ويفيد أسنى الشرف مشرّفُه، ويكتسب أبقى الفخر معظّمُه." (القالي، 2008م/ 1429هـ)

وأجلى من ذلك قول الحريري في مقاماته:" " فإنّهُ قدْ جرَى ببَعْضِ أنْديَةِ الأدَبِ الذي ركدَتْ في هذا العصْرِ ريحُهُ. وخبَتْ مصابيحُهُ ذكر المقامات التي أنشأها بديع الزمان" (الشريشي، 2004) فلقد ركدت في عصر الحريري ريح الأدب، وخبت مصابيحه، ولابد له من أنْ يقوم بمهمة إنعاش الأدب في هذه الأندية وإضاءة مصابيحه.

ثنائية القيمة والوظيفة:

تقوم ثنائية القيمة والوظيفة على تشكيل قوة دفع يتحوّل بموجبها الخطاب من طور الكلام الغفل الّذي إن ترك لم يضر، وإن قرئ لم ينفع، إلى طور الأقوال الجميلة النافعة ذات القيمة الرمزية في الثقافة، ويرجع الفضل في ذلك إلى هذا التحاور القائم بين القيمة والوظيفة التي تؤدي إلى الكلمات قيمة تبادليّة تسمح للأديب بأن يجد لها مكانا في سوق البيان. وما دام نظام التداول يقوم على نظام العرض والطلب فإنّ من مهام الأديب أنْ يبني معمار مقدمته بما يغري جمهور المتلقين في جمهورية الأدب، وهذا ما يفسر بوضوح لجوء جل كتاب المقدمات في تراثنا العربي إلى العناية الفائقة بالبيان وبتزيين الخطاب بالبديع وبزخرف الألفاظ طباقًا وجناسًا والحفاظ على بلاغة التشاكل والتمايز. وهو ما يقرّب ذات الأديب إلى ذات المتلقي، ويقلّص الهوة بين النصّ ومرجعيته.

صورة الأديب وصورة القارئ:

يتحمّل الخطاب التقديمي وظيفة إعلان صورة الأديب وصورة القارئ، وكلاهما يتشكّل من خلال البناء النصّي للخطاب ومن مضمراته الثقافية، ومن تشكلاتهما في المؤسسة الثقافية والأدبية.

الخطاب التقديمي يرينا الأديب المصنّف في صورة المتحكّم في توجيه مكانزمات الخطاب من أجل توجيه المتلقي والسيطرة على توجيهه نحو بؤرة الغرض الّذي يرومه من المصنّف والخطاب الّذي يوجهه، ويمنع ذلك القارئ عن أيّ خروج أو سوء فهم يزيغ به المتلقي عن مقصد الخطاب الّذي من أجله صنّف الكاتب الأديب كتابه، وهي في عمقها نظرة فوقية استعلائية تنطلق من فضلية المنتج على المتلقي، أو بتعبير آخر الموجّه أو المعلّم في قبال متلقيه الذين هم بمنزلة التلاميذ والمتعلمين.

الأديب يسوّغ لذاته بهذا الخطاب، بل قد يرى أنّ حقّه في ذلك أصيل، أنْ يحمي خطابه من شرور التأويل أو التوجيه غير المقصودة، ومن جهة أخرى فإنّه يرى نفسه جدير بهذا الحقّ، فهو يقدّم للمتلقي مصنّفًا أو خطابًا يمتاز عن غيره من الخطابات ويتفوّق عليها بما فيه من ممكنات لا توجد فيما سبقه.

يظلّ خطاب التقديم ركحًا للتفاوض بين موجِهات الأديب وفهم المتلقي أو بالأدق نمط تلقيه لذلك الخطاب، تقوم العملية التداولية بين الأديب الكاتب وبين القارئ المتلقي في ساحة الخطاب على حقّ المتلقي في الفهم، وعلى حقّ الأديب في المنع من سوء الفهم أو إساءة القراءة، ومن جهة أخرى تمثل علاقة التداول بين حالة العرض والطلب، والإشهار والتنفيق، المتلقي يبحث عن الخطاب (يطلبه)، والأديب يعرض في جمهوية الخطابات خطابه (كغيره من الأدباء)، ووفقًا لمبدأ العرض والطلب والإشهار والتنفيق، يروّج الأديب خطابه بأنّه الخطاب الّذي يزّ الخطابات الأخرى التي تشترك معه في المجال على الخريطة الأجناسية ليفوز برضى المتلقي، ولكنّ المتلقي يملك مساحة الاختيار والتمييز.

يقوم خطاب التقديم بذلك العمل الخطير، فيجعل الخطاب (والمؤلّف) في مساحة العرض وفي بؤرة المنافسة والاهتمام.

تتشكّل إذن صورة الأديب بعلاقته بخطابه ومتلقيه، وتتشكّل – من جهة أخرى – صورة المتلقي بعلاقته بالخطاب ومبدعه.

تبقى هذه العلاقة الجدلية تدفع نحو تشكيل الخطاب وتجويده، وتحديد سننه وسنن الإبداع والاستقبال.

ويبقى الخطاب التقديمي في كتب التراث العربي " ينهض بوظيفة الإحالة المرجعية على المتن الداخلي، ويترجم آثار التخاطب، ويربط صوت المؤلف بصوت القارئ، بما يمتلكه من مقومات دلالية، وتداولية حجاجية، وفنية تجعل منه خطابا مفتوحا على سياق التواصل الأدبي، بيد أن هذه وظائف تبرز دونها غايات أسمى يتحول معها خطاب المقدمات في مؤلفات التراث العربي خطابا متميزا، كشّاف أسرار، حمّال أخبار، فيه من الدرر والنفائس ما عفاه الزمن، وفيه من الإشراقات التكوينية ما يسمح بوضع

Volume: 4 Issue: 2

أسس نظرية متينة لما قبل النص، ويؤهّل لبناء علم صناعة التأليف." (مولاي البشير الكعبة، سعاد الزريفي عمراني، مليكة ناعيم، فاطمة حرار، 2018م)

الخاتمة:

يعدّ خطاب المقدمات في كتب التراث العربي من النصوص التقديمية التي لم تنل حظها من الدراسات النقدية في دراسة النّصّ لذاته.

إنّ انتقال النصّ العربي في رحلة التواصل من المشافهة إلى الكتابة أفضى بمؤلفي الكتب أنْ يقوموا بدور الوسيط بين النصّ والمتلقي.

إنّ لخطاب المقدمات في الكتب التراثيّة الأدبيّة سننًا قوليّة خاصّة ذات أبعادٍ حجاجية وإقناعية تخضع لاستراتيجيات خطابية تتصل اتصالا مباشرًا ووثيقًا بتقاليد المؤسسة الأدبية التي تتشكّل ضمن أعراف ثقافية ما تلبث أنْ تتحوّل إلى نسقٍ يشكّل إطارًا بنائيًا يكاد يكون واحدًا في مقدمات الكتب في التراث العربي عمومًا، وفي الكتب الأدبية منها على وجه مخصوص.

هذه المقدمة تكشف لنا عن صورة المبدع والمتلقي والنصّ، ما يكشف عن أنّ خطاب التقديم يخضع إلى سنن التأليف الأدبي ومواضعاته في الإبداع والاستقبال.

تلك الصورة هي التي تسبغ على هذا النص صفة الأدبية ووسم الخطاب بأن يكون خطابًا حيًّا ذا استراتيجيات وتقاليد خطابية يضطلع بها خطاب التقديم.

ثمّة علاقة دفع تتشكل بين قيمة المقدمة بوصفه خطابًا ووظيفته التداولية والحجاجية والأدبية.

المراجع والمصادر:

أبو العباس أحمد بن عبد المؤمن القيسي الشريشي. (2004). *شرح مقامات الحريري؛ تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم* (المجلد 1). بيروت: المكتبة العصرية.

أبو العباس، عبد الله ابن المعتز. (1981م ط4). *طبقات الشعراء، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج*. القاهرة: دار المعارف.

أبو علي القاسم بن إسماعيل القالي. (2008م/ 1429هـ). *كتاب الأمالي؛ تحقيق: صلاح بن فتحي هلل، وسيد عباس الجليمي* (المجلد 1). بيروت: المكتبة العصرية.

أحمد بن محمّد ابن عبد ربه. (1983م). *العقد الفريد، تحقيق: الدكتور مفيد محمّد قميحة* (المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

أحمد ذيب. (1441هـ). أصول التفسير في الخطاب المقدماتي، دراسة أبستمولوجية في أشهر مقدمات كتب التفسير.

القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي. (1978م). *الفرج بعد الشدة؛ تحقيق: عبود الشالجي* (المجلد 1). بيروت: دار صادر.

الوزير الأديب أبي سعد منصور بن الحسين الآبي. (2004). *نثر الدرّ في المحاضرات، تحقيق: خالد عبد الغني محفوظ* (الإصدار الأولى، المجلد 1). بيروت: دار الكتب العلمية.

باسم سليمان. (2020). مقدمات الكتب: خط الدفاع الأوّل. *رصيف*.

بشّار باكور. (2012). مقدمات الكتب من خبيء فوائدها ومكنون نفائسها. *مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد 87 الجزء 3*، 867 - 890.

حمدي خليفة عبيد. (2021). عمل الوساطة في خطاب المقدّمات، كتب الاختيارات :النثريّة أنموذجا. *مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، 29*(4)، 48 - 71.

عباس أرحيلة. (2003م). *مقدمة الكتاب في التراث الإسلامي وهاجس الإبداع*. الدار البيضاء: المؤسسة العربية للفكر والإبداع.

عبد الفتّاح كليلطو. (1993م). *المقامات السّرد والأنساق الثّقافيّة؛ ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدّار البيضاء، ط1، 1993م*. (الإصدار الأولى). الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

عبد القادر بن عمر البغدادي. (ط1، 1387هـ، 1967م). *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب؛ تحقيق: عبد السلام هارون* (المجلد 1). القاهرة: مكتبة الخانجي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

عبد القاهر الجرجاني. (1987م/1407هـ). *دلائل الإعجاز؛ تحقيق محمد الداية و فايز الداية*. دمشق : مكتبة سعد الدين.

عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. (1453هـ/ 2014م). *عيون الأخبار، تحقيق: الداني آل زهوي* (المجلد 1). صيدا، بيروت: المكتبة العصرية.

محمّد النفزاوي. (بدون تاريخ). *الروض العاطر في نزهة الخاطر؛ تحقيق: جمال جمعة*. مخطوط.

Mohamad Walat. (2014). مقدمة ابن المقفع ل(كليلة ودمنة) مستويات القارئ. *Edebiyat Fakültesi Dergisi/Journal of Faculty of Letters*(32)، 127 - 142.

مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة. (1941م). *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون؛ تحقيق: محمد شرف الدين، ورفعت بيلكة الكليسي* (المجلد 1). بيروت: دار إحياء التراث العربي.

Volume: 4 Issue: 2

منشورات الجمل. (1997). *الجنس عند العرب: نصوص مختارة*. ألمانيا: منشورات الجمل كولونيا.

مولاي البشير الكعبة، سعاد الزريفي عمراني، مليكة ناعيم، فاطمة حرار. (2018م). *خطاب المقدمات التراثية: مقاربة في النوع والمنهج والوظيفة (مؤلّف جماعي)*. مراكش: مؤسسة آفاق.